المرأة الفينيقية

جون نور

«حِينَئِذٍ أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهَا: «يَا امْرَأَةُ، عَظِيمٌ إِيمَانُكِ! لِيَكُنْ لَكِ كَمَا تُرِيدِينَ. فَشُفِيَتِ ابْنَتُهَا مِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ» (متّى 15:28).

نحن الآن عِند حدود صور وصيدا. فقد ترك المُعلّم أرض اليَهودية وسار إلى أرض الأُمم. لقد ضاقت نفسه بعدم إيمان «الشعب المُختار». فإنهم بالرغم من البراهين الكثيرة التي شهدت بها حياة يسوع استمرّوا يُقاوِمونه ويَضطهدونه. ورُبّما يجد عِند الوَثنيين الإيمان الذي لم يَجده عند أبناء الله!! وقبل أن يتوغل في أرض الأمم أقبلت نحوه امرأة أرملة عرفنا فيما بَعد أن لها إبنة وَحيدة. وإن المَرأة كَانت كِنعانية فينيقيّة، وقد أقبلت صارخة:

«ارْحَمْنِي، يَا سَيِّدُ، يَا ابْنَ دَاوُدَ! اِبْنَتِي مَجْنُونَةٌ جِدًّا» (متّى 15 : 22).

كانت المَرأة قد سمعت عن النبي اليهودي وعن آياته وقوّاته، فلما جاء إلى المكان الذي تقيم فيه أحسّت أن العَناية هي التي أرسلته، ومع أن المرأة لم تكن تعلم شيئاً تفصيلياً عن المسيّا وعن أنه ابن داود إلاّ أنهم أخبروها أنه ابن داود ولذلك ركضت خَلفه وهي تصرخ ارحمني يا ابن داود!

مالك أيتها المَرأة وابن داود أخطأت الاتجاه إن يسوع هو ابن داود لليهود الذين كَانوا يَنتظرون ملك لليهود، أما لك أيتها الوثنيّة فإن يسوع هو ابن الله!

لقد سمع السيد صراخها بالرغم من أنها وجهتها إلى ابن داود، على أنه عمل معها كما يعمل معنا ومع غيرنا في كَثير من الأحيان – صمت ولم يجب طلبتها.

وظَلّت المَرأة تصرخ خلفه، ارحمني يا سيّد يا ابن داود، ابنتي مَجنونة جِدّاً!!

وكان صُراخها لَهيب نار خارجا من قلب أم. وظلّ السيد على صَمتِه مُدّة طَويلة!

لم تَفشل المَرأة بل استمرّت تصرخ طوال الطَريق وكان صَوتها مدوياً حتى أن التلاميذ تَضايقوا من صُراخها والتمسوا مِنه أن يَستَجيب لصراخها ويشفي ابنتها. قالوا ذلك ليس لأنهم رأفوا بحالتها وأشفقوا عليها واشتركوا في ألمها. كلا. بل كانت وساطتهم بدافع أناني فقد ضاقت نفوسهم من صراخها وانزعجوا من اتباعها إيّاهُم وأرادوا أن يَستَريحوا مِنها وهُم يَقولون اصرِفها لأنها تَصيح وَراءنا!

ولم يسمع المُعلّم لصوت تلاميذه وأعلن أن رِسالته الأولى ليست للأمم. وإنما لإسرائيل وهو لم يفرغ بعد من رِسالته لهم. ولو أنه وسع دائرة خدمته لما كفاه الزمن القليل الذي سيقضيه على الأرض. وهو لذلك قد نظم زِيارته بحيث تَناولت الشعب المُختار!

وبِالرُغم من أن المَرأة سمعت الكلام الواضِح أنه لم يُرسِل إلاّ إلى خِراف بَيت إسرائِيل الضالة فإنها ظَلّت تَتبعه صارخة ارحمني يا ابن داود. ابنتي مَجنونة جداً!

وما اجمل حب الأم أعزائي المستمعين!! إنه لا يقف عند حدّ. إنه يخترق المسالك غير المَطروقة ويصعد الجِبال الشَامِخة ويَحتمل المُقاومة والصَدّ ويَظلّ مُحتَفِظاً بِقوّة إيمانِه. إن المَرأة لا تعود إلى البَيت ولا تُسلّم بِالهَزيمة.

وها نحن نرى المَرأة تتبع يسوع وهي لا تكف عن الصراخ خلفه حتى دخل بيتاً. وظنّ التلاميذ أن المرأة ستعود ولكنهم أخطأوا.. لا شيء يمنعها من اتباعه ولا دخوله بَيتاً غَريباً. فهي تدخل خلفه وتَجثو عِند قَدميه وتَسكُب دموعها فَيّاضة تبلّ الأرض تَحته وتَقول بنغمة باكِية يا سيد أعنّي!

ونظر السيّد إلى المَرأة. كانت كلماته قاسِية ولكن يا للعجب أن وجهه لَيّن وعَينيّه يَفيض مِنهما عَطِف وحُب. كان وَجهه يُشجعها ولكن كلماته تَصدّها «لَيْسَ حَسَنًا أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ الْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكِلاَبِ» (متّى 15: 26)

وكانت الكَلِمات مَثلاً مَعروفاً لا يحمل قوة الخشونة التي نراها نحن. ولكنه على ألين صورة – تَعبير قاسٍ وخَشِن. وسواء كان المَقصود بِالكِلاب، الكِلاب الضَالة المؤذيّة أو الكِلاب المُدللة في البيت، فإن المِعنى أن مَكان المَرأة بِالنِسبة لِخِدمة يسوع مَكان من لا يَجوز أن تُعطى حَقّ الغير. فهل فرغ صبر المرأة وهل صاحَت فيه مُحتجة، ولعنت ذلك الشعب اليَهودي البغيض. هل قامت ووجهها نحو بيتها. هل فعلت شيئاً من ذلك؟ كلا. بل انحنت أمام كلماته وأجابت نعم. نعم يا سيّد ليس حَسناً أن يؤخذ خبز البَنين ويُطرَح لِلكِلاب ولَكني لا أطلب خبز البَنين إنني أطلب الفتات السَاقِط مِن مَائِدتهم فالكلاب أيضاً تأكل من الفتات الساقط من مَائِدة أربابها!! وهُنا تَعجّب يَسوع وَكان تَعجّبه عَظيماً جِدّاً.

«يَا امْرَأَةُ، عَظِيمٌ إِيمَانُكِ! لِيَكُنْ لَكِ كَمَا تُرِيدِينَ» وهَكذا انتصر إيمانها وشُفيت ابنتها مِن تِلكَ السَاعة. هل لنا مثل هذا الايمان أعزائي المستمعين الذي لا يكل ولا يمل بل يصر ويطلب إلى أن ينال ما يرجوا لقد انحنت هذه المراة وصرخت وطلبت إلى أن نالت ما أرادت من يسوع. ليت الرب يعطينا في قلوبنا هذا الإصرار لكي نطلب بثقة البنين «اِسْأَلُوا تُعْطَوْا. اُطْلُبُوا تَجِدُوا. اِقْرَعُوا يُفْتَحْ لَكُمْ» (متّى 7: 7) ولإلهنا كل المجد.